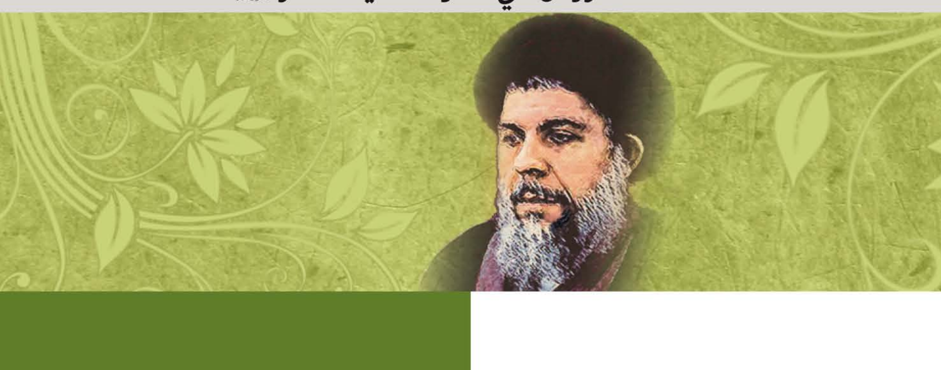


12

المُرسِل (الله)

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره





الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



مركز نون
للتأليف والترجمة

المرسِل (الله)

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب:	المرسِل (الله)
إعـداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
نـشـر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	شباط 2011م/ 1432هـ

المرسِل (اللّه)

دروس من فكر الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمدُ للّه ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء محمّد وآله الطيّبين الطاهرين...

لقد انجرف جيل واسع من الشباب والمثقّفين الإسلاميّين مع التيّار الماديّ والإلحاديّ الّذي اجتاح العالم كلّه عقيب اندلاع الثورة العلميّة والصناعيّة في أوروبا. ونتيجة لانبهار هؤلاء الشباب والمثقّفين بالحضارة الماديّة وزخرفها، اعتقدوا بأنّ كلّ شيء في هذا الوجود لا يخضع للملاحظة، والحسّ، والتجربة فهو غير موجود!! بل أصبحوا ينظرون إلى الكون على أنّه مجرّد حركة ميكانيكيّة - جدليّة قائمة على الصدفة تارة وقانون التناقض تارة أخرى!!.

ولكنْ بفضل الله سبحانه وتعالى، ومن ثُمَّ جهد وجهاد العلماء والمراجع العظام وفي مقدّمتهم الإمام الخمينيّ قدس سره، انبعثت صحوة إسلاميّة عالميّة، كان من أبرز سماتها انتشار الكتاب الإسلاميّ الغنيّ بمادّته الفكريّة، والثقافيّة، والفلسفيّة، والمنطقيّة المستمدّة من الفكر المحمّديّ الأصيل وأهل بيته عليهم السلام.

هذا الكتاب الإسلاميّ أعاد إلى جيل الشباب والمثقّفين والجامعيّين الإسلاميّين هويّتهم الحقيقيّة، وعقيدتهم السليمة، ومبادئهم الثابتة، بل أعاد لهم ثقتهم مجدّداً بالإسلام العظيم.. فكان من جملة تلك الكتب الإسلاميّة، ما كتبه وألّفه الشهيد الصدر قدس سره من كتب ومؤلّفات، لعلّ من أبرزها الكتاب الموسوم

بـ (المرسل - الرسول - الرسالة) ، والّذي هو عبارة عن موجز في أصـول الدِّين والعقيدة، يُثبـت - الشهيد الصدر قدس سره - من خلاله وجود المرسِـل وهو الله تعالى، وبعثة رسولـه صلى الله عليه وآله وسلم ، ورسالته الدِّين الإسلاميّ، وذلـك بالاستناد إلى الدليلين العلميّ والفلسفيّ متجنّباً فيهما قـدر المستطاع التوغّل فـي الحسابات الرياضيّـة المعقّدة، والأسـس المنطقيّة المعمّقة للمنهـج الاستقرائيّ، بغية تقديم مادّة فكريّة يُمكن لشريحة واسعة من النّاس فهمها واستيعابها.

وعلـى ضوء ذلك أرتـأى مركز نـون للتأليـف والترجمة اختيار بحـث المرسِـل (الله) من كلمـات الشهيد السعيـد قدس سره ، حيث تمّ تهذيبه وتشذيبه من المكرّرات، مع التصرّف البسيط بالعبارة بغية المحافظـة قدر الإمكان على عبارة الشهيـد، هذا مع إضافة بعض العناوين للفقرات والأبحاث، وترتيب وتنسيق بعضها الآخر.

لذا يُعدُّ هذا البحث تلخيصاً لدراسة الشهيد الصدر قدس سره الّتي كتبها كمقدّمة لرسالته العمليّة (الفتاوى الواضحة) .

(راجـع كتـاب: المرسِـل - الرسول — الرسالـة/ السّيد محمّد باقر الصّدر/ دار التعارف للمطبوعات/ بيروت — لبنـان/ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) .

مركز نون للتأليف والترجمة

الأهداف

١. التعرّف إلى إثبات وجود الصانع الحكيم الله سبحانه وتعالى من خلال:

١ - الدليل العلميّ (الاستقرائيّ).

٢ - الدليل الفلسفيّ.

المرسِل الله سبحانه وتعالى:

قبل الخوض في تفاصيل الأدلّة الفلسفيّة والعلميّة الّتي تُثبت وجود خالق الكون، سوف نبدأ بمقدّمة موجزة نتناول فيها حقيقة الإيمان بالله تعالى وانحراف البشريّة عن ذلك.

فطرة الإيمان بالله تعالى:

يُعتبر إيمان الإنسان بالله تعالى وعبادته والارتباط به، عبارة عن نزعة أصيلة فطريّة راسخة في داخل الإنسان. ولم يكن هذا الإيمان وليد تناقض طبقيّ وصراع بين طبقة المستغِلّين للإنسانيّة وطبقة المستغَلّين المستضعَفين؛ لأنّ هذا الإيمان سبق في تأريخ البشريّة أيّ تناقضات من هذا القبيل، كما إنّه لم يكن - أيضاً - وليد مخاوف وشعور

بالرعب اتجاه كوارث الطبيعة، ولو كان كذلك لأصبح أكثر النّاس تديّناً على مرّ التأريخ هم أشدّهم خوفاً وأسرعهم هلعاً.

إذاً، إنّ إيمان الإنسان بالله تعالى هو حالة منسجمة مع طبيعته الفطريّة، إلّا أنّه في فترة تالية تفلسف الإنسان، واستخلص من الأشياء الّتي تحوطه في الكون مفاهيم عامّة (كالوجود والعدم، والعلّة والمعلول... وغيرها)، فاتّجه إلى استخدامها وتطبيقها في مجال الاستدلال، على نحو يدعم ذلك الإيمان الأصيل بالله سبحانه بأسلوب فلسفيّ.

وحينما بدأت التجربة - القائمة على الحسّ والملاحظة - تبرز على صعيد البحث العلميّ كأداة للمعرفة البشريّة، أدرك المفكّرون أنّ تلك المفاهيم العامّة لم تعد تكفي بمفردها في اكتشاف قوانين الطبيعة وأسرارها، لذا آمنوا بأنّ الطريق إلى ذلك يمرّ عبر مرحلتين:

أولاهما: مرحلة الحسّ والتجربة، وتجميع معطياتها.

الأخرى: مرحلة عقليّة، حيث يتمّ فيها الاستنتاج والتنسيق بين تلك المعطيات، للخروج بتفسير عامّ مقبول.

من هنا اعتُبرت مسألة الإيمان بالله تعالى مسألة فلسفيّة - حسب التصنيف السائد لمسائل المعرفة البشريّة وقضاياها - بمعنى أنّها مسألة خارجة عن الوسيلة الوحيدة للمعرفة، وهي الحسّ، وحيث ينتهي الحسّ تنتهي معرفة الإنسان، بالتّالي فكلّ ما لا يكون محسوساً، ولا يُمكن تسليط التجربة عليه، بشكل أو بآخر، فلا يملك الإنسان وسيلة لإثباته.

بالنتيجة تمّ ضرب فكرة الإيمان بوجود خالق للكون وهو الله تعالى، ولكن لم يتمّ ذلك على يد العلماء التجريبيّين، بل على يد مجموعة من الفلاسفة من ذوي النزعة الفلسفيّة والمنطقيّة المتطرّفة، الّتي فسّرت الاتّجاه التجريبيّ الحسّيّ تفسيراً فلسفيّاً أو منطقيّاً خاطئاً. لذا تضاءل نفوذ أصحاب هذه النزعة بعد أنّ تجاوزهم ذوو الاتّجاه التجريبيّ والحسّيّ، ولم يعبأوا بهم في مسيرتهم نحو اكتشاف أسرار

الكـون وقوانينـه، كما رفضهم روّاد الفلسفة المادّيّة الحديثة بزعامـة (المادّيّين الجدليّيـن)، والّذين أعطـوا لأنفسهم الحـقّ في تجاوز حتّـى نطاق الحسّ والتجربـة، فقدّموا من خلال مقارنتهم للمعطيات العلميّة المختلفة تفسيراً شاملاً للكون ضمن إطار ديالكتيكيّ.

وعلى ضـوء ذلك اتّفق كلٌّ مـن الاتّجاه المـادّيّ الجدليّ (الديالكتيكيّ) والاتّجاه الإلهـيّ على تجاوز النطاق الحسّيّ والتجريبـيّ، الّذي دعت تلك النزعـات الفلسفيّة المتطرّفة إلـى التقيّـد بـه، وأصبح مـن المعقـول أنّ تتّخـذ المرحلة البشريّة مرحلتين:

- مرحلة لتجميع معطيات الحسّ والتجربة.
- مرحلة لتفسيرها نظريّاً وعقليّاً.

ولكنّ الخلاف الّذي وقع بين المادّيّة الجدليّة والإلهيّة، هو على نوع التفسير الّذي تستنتجه عقليّاً في المرحلة الثانية من معطيات العِلم المتنوّعة، فالمادّيّة تفترض تفسيراً ينفي وجود صانع حكيم، والإلهيّة تـرى أنّ تفسير تلك المعطيات لا يُمكن

أنْ يكون مقنعاً ما لم يشتمل على الإقرار بوجود صانع حكيم.

عود على بدء:

بناءً على ما سبق سنعرض فيما يلي نمطين من الاستدلال على وجود الصانع الحكيم سبحانه، تتمثّل في كلٍّ منهما معطيات الحسّ والتجربة من ناحية، والتنظيم العقليّ من ناحية أخرى.

وسنبدأ فيما يلي بالدليل العلميّ الاستقرائيّ وتطبيقاته العمليّة، ومن ثُمّ نتطرّق للدليل الفلسفيّ.

النمط الأوّل - الاستدلال العلميّ لإثبات الله تعالى:

يُعرّف الدليل العلميّ: على أنّه كلّ دليل يعتمد الحسّ والتجربة ويتّبع النهج الاستقرائيّ، القائم على حساب الاحتمالات.

ولكنْ قبل أنْ نستعرض هذا الدليل وتطبيقاته المنهجيّة في إثبات وجود الله تعالى، لا بُدّ أنْ نشرح هذا المنهج الاستقرائيّ، ونُحدّد خطواته بصورة مبسّطة وموجزة، وبعد

ذلـك نُقيّمه، لنتعرّف إلى مدى إمـكان الوثوق به، والاعتماد عليه في اكتشاف الحقائق والتعرُّف إلى الأشياء.

أ - تحديد المنهج الاستقرائيّ وخطواته:

إنّ منهـج الدليـل الاستقرائـيّ القائـم علـى حسـاب الاحتمالات، يُمكن تلخيصه في الخطوات الخمس التّالية:

أوّلاً: نواجه في مجال الحسّ والتجربة ظواهر عديدة.

ثانيـاً: ننتقـل بعـد ملاحظتهـا وتجميعهـا إلـى مرحلة تفسيرهـا، والمطلـوب فـي هذه المرحلـة أنّ نجـد فرضيّة صالحة وواقعيّة، لتفسير تلك الظواهر، وتبريرها جميعاً.

ثالثـاً: نُلاحـظ أنّ هذه الفرضيّـة، إذا لم تكن صحيحة وثابتـة في الواقع، ففرصة وجود تلك الظواهر كلّها مجتمعة ضئيلـة جدّاً؛ بمعنى أنّه على افتراض عدم صحّة الفرضيّة، تكون نسبة احتمال وجودها - أي الظواهر - جميعاً إلى احتمال عدمها، أو عدم واحد منهـا على الأقلّ، ضئيلة جدّاً، كواحد في المائة أو واحد في الألف وهكذا.

رابعـاً: نستخلص مـن ذلك أنّ الفرضيّـة صادقة ويكون

دليلنا على صدقها، وجود تلك الظواهر الّتي أحسسنا بوجودها في الخطوة الأولى.

خامساً: إنّ درجة إثبات تلك الظواهر، للفرضيّة المطروحة في الخطوة الثانية، تتناسب عكسيّاً مع نسبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعاً إلى احتمال عدمها على افتراض كذب الفرضيّة، فكلّما كانت هذه النسبة أقلّ كانت درجة الإثبات أكبر، حتّى تبلغ في حالات اعتياديّة كثيرة درجة اليقين الكامل بصحّة الفرضيّة[1].

هذه هي الخطوات الّتي نتّبعها عادة في كلّ استدلال استقرائيّ يقوم على أساس حساب الاحتمال، سواء في مجال الحياة الاعتياديّة، أو على صعيد البحث العلميّ، أو في مجال الاستدلال على الصانع الحكيم سبحانه وتعالى. وما سيأتي من تطبيق هذه الخطوات سيوضّح لنا ذلك بدرجة كافية.

---

(١) للمزيد من التفاصيل، يراجع كتاب: «الأسس المنطقيّة للاستقراء» لمؤلفه الشّهيد السّعيد محمّد باقر الصّدر قدّس سرّه.

ب - تقييم المنهج الاستقرائيّ:

تقييم هذا المنهج وتحديد مدى إمكان الوثوق به، لا يكون عن طريق تحليله منطقيّاً، واكتشاف الأسس المنطقيّة والرياضيّة الّتي يقوم عليها؛ لأنّ هذا يضطّرنا إلى الدخول في أشياء معقّدة. بل نُقيّم المنهج الّذي سنتّبعه في الاستدلال على الصانع الحكيم، في ضوء تطبيقاته الأخرى العمليّة، المعترف بها عموماً لكلّ إنسان سويّ، وسنرى حينها أنّ هذا المنهج هو نفس المنهج الّذي نعتمده في استدلالاتنا الّتي نثق بها كلّ الثقة في حياتنا اليوميّة الاعتياديّة، والّتي نذكر منها المثال التّالي:

أنت في حياتك الاعتياديّة، حين تتسلّم رسالة بالبريد، تعرف بمجرّد قراءتها أنّها من أخيك، لا من شخص آخر ممّن يرغب في مواصلتك ومراسلتك؛ لأنّك بذلك أنت تُمارس استدلالاً استقرائيّاً قائماً على حساب الاحتمال، ومهما كانت هذه القضيّة (وهي أنّ الرسالة من قبل أخيك) واضحة في نظرك، فهي في الحقيقة قضيّة استنتجتها

بدليل استقرائيّ وفقاً للمنهج المتقدّم. وهذا ما سيتبيّن لنا من تطبيق الخطوات الخمس التّالية للمنهج الاستقرائيّ:

الخطوة الأولى: تواجه فيها ظواهر عديدة، من قبيل أنّ الرسالة تحمل اسماً يتطابق مع اسم أخيك تماماً، وقد كُتبت فيها الحروف جميعاً، بنفس الطريقة الّتي يكتب بها أخوك، وبنفس أسلوب التعبير، والرسالة تتضمّن معلومات يعرفها أخوك عادة، وتتوافق مع حاجاته وآرائه.

هذه إذاً مجموعة الظواهر والمعطيات.

الخطوة الثانية: نطرح السؤال التّالي: هل الرسالة قد أرسلها أخي إليّ حقّاً، أو أنّها من شخص آخر يحمل نفس الاسم؟

وهنا نجد أنّ لديك فرضيّة صالحة وواقعيّة لتفسير وتبرير كلّ تلك الظواهر.

والفرضيّة هي: أنّ تكون هذه الرسالة من أخيك حقّاً، فإذا كانت من أخيك، فمن الطبيعيّ أنّ تتوافر كلّ تلك المعطيات الّتي لاحظتها في المرحلة الأولى.

الخطوة الثالثة: نطرح السؤال التّالي: إذا لم تكن هذه الرسالة من أخي، بل كانت من شخص آخر، فما هي فرصة أنّ توجد فيها كلّ تلك المعطيات والخصائص الّتي لاحظتها في الخطوة الأولى؟

إنّ هذه الفرضيّة بحاجة إلى مجموعة كبيرة من الافتراضات؛ لأنّنا لكي نحصل على كلّ تلك المعطيات والخصائص، في هذه الحالة يجب أنّ نفترض أنّ شخصاً آخر يحمل نفس الاسم، ويُشابه أخاك تماماً في أسلوب الكتابة، والتعبير، والمعلومات، والحاجات. وهذه مجموعة من الصدف يُعتبر احتمال وجودها جميعاً ضئيلاً جدّاً، وكلّما ازداد عدد هذه الصدف الّتي لا بُدّ من افتراضها تضاءل الاحتمال أكثر فأكثر.

الخطوة الرابعة: تقول ما دام وجود كلّ هذه الظواهر في الرسالة أمراً غير محتمل، إلاّ بدرجة ضئيلة جدّاً، على افتراض أنّ الرسالة ليست من أخيك، فمن المرجّح بدرجة

كبيرة، بحكم وجود هذه الظواهر فعلاً، أنّ تكون الرسالة من أخيك.

الخطوة الخامسة: هنا نربط بين الترجيح الّذي قرّرته في الخطوة الرابعة، (ومؤدّاه أنّ الرسالة قد أُرسلت من أخيك)، وبين ضآلة الاحتمال الّتي قرّرتها في الخطوة الثالثة، وهي ضآلة احتمال أنّ توجد كلّ تلك الظواهر في الرسالة، بدون أنّ تكون من أخيك.

ويعني الربط بين هاتين الخطوتين: أنّ درجة ذلك الترجيح تتناسب عكسيّاً مع ضآلة هذا الاحتمال، فكلّما كان هذا الاحتمال أقلّ درجة، كان ذلك الترجيح أكبر قيمة وأقوى إقناعاً، وإذا لم تكن هناك قرائن عكسيّة تنفي أنّ تكون الرسالة من أخيك، فسوف تنتهي من هذه الخطوات الخمس إلى القناعة الكاملة بأنّ الرسالة من أخيك.

إذاً إضافة إلى هذا المثال الّذي تقدّم، فإنّه يوجد العديد من الأمثلة الأخرى في مجال حياتنا اليوميّة أو في مجال

البحث العلميّ، إلّا أنّ السؤال الّذي يطرح نفسه هنا هو التّالي:

كيف نُطبّق هذا المنهج العلميّ في إثبات الصانع؟

الخطوة الأولى: نُلاحظ توافقاً مطّرداً بين عدد كبير وهائل من الظواهر المنتظمة، وبين حاجة الإنسان ككائن حيّ، وتيسير الحياة له، على نحو نجد فيه أنّ أيّ بديل لظاهرة من تلك الظواهر، يعني انطفاء حياة الإنسان على الأرض أو شلّها، ومن تلك الظواهر نذكر - على سبيل المثال - نموذجين، هما:

أ - تتلقّى الأرض من الشمس كمّيّة من الحرارة، تمدّها بالدفء الكافي لنشوء الحياة، وإشباع حاجة الكائن الحيّ إلى الحرارة، لا أكثر ولا أقلّ. وقد لوحظ علميّاً أنّ المسافة الّتي تفصل بين الأرض والشمس تتوافق توافقاً كاملاً مع كمّيّة الحرارة المطلوبة من أجل الحياة على هذه الأرض، فلو كانت ضعف ما عليها الآن، لما وجدت حرارة بالشكل الّذي يُتيح الحياة،

ولو كانت نصف ما عليها الآن، تضاعفت الحرارة إلى الدرجة الّتي لا تُطيقها الحياة.

ب - ونُلاحظ ظاهرة طبيعيّة أخرى تتكرّر باستمرار ملايين المرّات على مرّ الزمن، لتنتج قدراً معيّناً من الأوكسجين المتوازن باستمرار، وهي أنّ الإنسان - والحيوان عموماً - حينما يتنفّس الهواء، ويستنشق الأوكسجين، يتلقّاه الدم، ويوزّع في جميع أرجاء الجسم، ويُباشر هذا الأوكسجين حرق الطعام، وبهذا يتولّد ثاني أوكسيد الكربون، الّذي يتسلّل إلى الرئتين، ثُمّ يلفظه الإنسان، وبهذا ينتج الإنسان وغيره من الحيوانات هذا الغاز باستمرار. وهذا الغاز نفسه شرط ضروريّ لحياة كلّ نبات، والنبات بدوره حين يستمدّ ثاني أوكسيد الكربون، يفصل الأوكسجين منه، ويلفظه ليعود نقيّاً صالحاً للاستنشاق من جديد، وبهذا التبادل بين الحيوان والنبات، أمكن الاحتفاظ بكمّيّة من الأوكسجين، ولولا ذلك لتعذّر هذا العنصر، وتعذّرت الحياة على الإنسان نهائيّاً.

لـذا قال تعالـى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

الخطوة الثانية: بناء على ما سبق من حالة التوافق المستمرّ بين الظواهر الطبيعيّة ومهمّة ضمان الحياة، يُمكن أنْ نُفسِّر ذلك عبر طرح الفرضيّة التّالية:

أنْ نفترض صانعاً حكيماً لهذا الكون، قد استهدف أنْ يوفّر في هذه الأرض عناصر الحياة وسير مهمّتها، وذلك من خلال إيجاد توافق وتكامل بين الظواهر الطبيعيّة في هذا الكون الواسع.

الخطوة الثالثة: نتساءل إذا لم تكن فرضيّة الصانع الحكيم ثابتة في الواقع، فما هو مدى احتمال أنْ توجد كلّ تلك التوافقات، بين الظواهر الطبيعيّة ومهمّة تيسير الحياة دون أنْ يكون هناك هدف مقصود؟

من الواضح أنّ احتمال ذلك يعني افتراض مجموعة هائلة

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

من الصدف، وإذا كان احتمال أنّ تكون الرسالة المقدّمة إليك - في المثال السابق - من شخص آخر غير أخيك، ولكنّه يُشابهه في كلّ الصفات بعيداً جدّاً؛ لأنّ افتراض المشابهة في ألف صفة ضئيل، بدرجة كبيرة في حساب الاحتمالات، فما ظنّك باحتمال أنّ تكون هذه الأرض الّتي نعيش عليها، بكلّ ما تتضمّنه، من صنع مادّة غير هادفة ولكنّها تُشابه الفاعل الهادف الحكيم في ملايين الصفات؟

الخطوة الرابعة: ترجّح بدرجة لا يشوبها الشكّ أنّ تكون الفرضيّة الّتي طرحتها في الخطوة الثانيّة صحيحة؛ أيّ أنّ هناك صانعاً حكيماً.

الخطوة الخامسة: نربط بين هذا الترجيح وبين ضآلة الاحتمال الّتي قرّرناها في الخطوة الثالثة. ولمّا كان الاحتمال في الخطوة الثالثة يزداد ضآلة كلّما ازداد عدد الصدف الّتي لا بُدّ من افتراضها فيه - كما عرفنا سابقاً - فمن الطبيعيّ أنّ يكون هذا الاحتمال ضئيلاً، بدرجة لا تُماثلها احتمالات

الخطوة الثالثة في الاستدلال على أيّ قانون علميّ؛ لأنّ عدد الصدف الّتي لا بُدّ من افتراضها في احتمال الخطوة الثالثة هنا أكثر من عددها في أيّ احتمال مناظر، وكلّ احتمال من هذا القبيل فمن الضروريّ أنّ يزول.

وهكذا نصل إلى النتيجة القاطعة، وهي أنّ للكون صانعاً حكيماً، بدلالة كلّ ما في هذا الكون من آيات الاتّساق والتدبير:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

النمط الثاني: الاستدلال الفلسفيّ لإثبات اللّه تعالى:

يُعرَّف الدليل الفلسفيّ بأنّه: الدليل الّذي يعتمد لإثبات واقع موضوعيّ في العالَم الخارجيّ على معلومات عقليّة - أي المعلومات العقليّة الّتي لا تحتاج إلى إحساس وتجربة - إضافة إلى اعتماده على مبادىء الدليل الرياضيّ[1] الّذي يُستعمل في مجال الرياضيّات البحتة، ويقوم على مبدأ أساس وهو مبدأ عدم التناقض[2].

وهذا لا يعني بالضرورة أنّ الدليل الفلسفيّ لا يعتمد على معلومات حسّيّة أو استقرائيّة، وإنّما يعني أنّه لا يكتفي بها، بل يعتمد إلى جانب هذا أو بصورة مستقلّة عن ذلك على معلومات عقليّة أخرى في إطار الاستدلال على القضيّة الّتي يُريد إثباتها، لذا يختلف الدليل الفلسفيّ عن الدليل العلميّ - السابق الذكر - في تعامله مع معلومات عقليّة لا تدخل في نطاق مبادىء الدليل الرياضيّ.

---

(١) يقسم الدليل إلى ثلاثة أقسام: الدليل الفلسفيّ، الدليل الرياضيّ، الدليل العلميّ.

(٢) الدليل الرياضيّ الّذي يعتمد على مبدأ عدم التناقض، يحظى بثقة الجميع، كما سيأتي في بيان ذلك لاحقاً.

ولكنّ السؤال الّذي يطرح نفسه: هل بالإمكان الاعتماد على المعلومات العقليّة بدون حاجة إلى إحساس وتجربة أو استقراء علميّ؟

والجواب عن ذلك بالإيجاب، فإنّ هناك في معلوماتنا ما يحظى بثقة الجميع (كمبدأ عدم التناقض)، القائل: إنّ (أ) هي (أ) ولا يُمكن أنّ لا تكون (أ). هذا المبدأ تقوم عليه كلّ الرياضيّات البحتة، ويقوم إيماننا به على أساس عقليّ، وليس على أساس الشواهد والتجارب في مجال الاستقراء العلميّ.

وبكلمة أخرى: إنّ رفض الدليل الفلسفيّ لمجرّد أنّه يعتمد على معلومات عقليّة لا ترتبط بالتجربة والاستقراء؛ يعني رفض الدليل الرياضيّ أيضاً؛ لأنّه يعتمد على مبدأ عدم التناقض الّذي لا يرتبط اعتقادنا فيه بالتجربة والاستقراء[1].

---

(١) للمزيد من التفاصيل والتعمق يراجع كتاب: «الأُسس المنطقيّة للاستقراء»، لمؤلّفه الشّهيد السّعيد السّيد محمّد باقر الصّدر (قده).

القضايا الثلاث المكوّنة للدليل الفلسفيّ:

يعتمد هذا الدليل على القضايا الثلاث التّالية:

أوّلاً: إنّ كلّ حادثة لها سبب، وهذه قضيّة يُدركها الإنسان فطريّاً، ويؤكّدها الاستقراء العلميّ.

ثانياً: كلّما وُجدت درجات متفاوتة من شيء ما، بعضها أقوى وأكمل من بعض، فليس بالإمكان أنْ تكون الدرجة الأقلّ كمالاً والأدنى محتوى، هي السبب في وجود الدرجة الأعلى، فالحرارة (مثلاً) لها درجات بعضها أشدّ وأكمل من بعض، فلا يُمكن أنْ تنبثق درجة أعلى من الحرارة عن درجة أدنى منها؛ لأنّ كلّ درجة أعلى تُمثّل زيادة نوعيّة وكيفيّة على الدرجة الأدنى منها، وهذه الزيادة النوعيّة لا يُمكن أنْ يمنحها من لا يملكها.

ثالثاً: إنّ اختلاف درجات الوجود في هذا الكون وتطوّرها يعني تنوّع أشكاله كيفيّاً مع ارتفاع كلّ درجة، فمثلاً: إنّ المادّة في تطوّرها المستمرّ تتّخذ أشكالاً مختلفة

في درجة تطوّرها، فالجزئيّ من المادّة الّذي لا حياة فيه ولا إحساس يُمثّل شكلاً من أشكال الوجود للمادّة، بينما نطفة الحياة الّتي تُساهم في تكوين النبات والحيوان تُمثّل شكلاً أرفع لوجود المادّة، هذا في حين أنّ (الإنسان) الكائن الحيّ والحسّاس، يُعتبر الشكل الأعلى من أشكال الوجود في هذا الكون.

أمام هذه القضايا الثلاث للدليل الفلسفيّ يُطرح سؤالان:

السؤال الأولى: هل الفارق بين التراب والإنسان - الّذي تكوّن منه - عدديّ فقط أو هو الفارق بين درجتين من الوجود ومرحلتين من التطوّر والتكامل، كالفارق بين الضوء الضعيف والضوء الشديد؟

ينطلق الفكر المادّيّ – الميكانيكيّ، في جوابه عن هذا السؤال، من نظرته الميكانيكيّة في تفسير الكون، والقائلة بأنّ العالَم الخارجيّ يتكوّن من جسيمات صغيرة متماثلة، تؤثّر عليها قوى بسيطة متشابهة جاذبة وطاردة ضمن قوانين

عامّة؛ أي أنّ عملها يقتصر على التأثير بتحريك بعضها لبعض من مكان إلى مكان، وبهذا الجذب والطرد تتجمّع أجزاء وتتفرّق أجزاء وتتنوّع أشكال المادّة، بالتّالي لا يحصل تطوّر جديد في المادّة، فالمادّة لا تنمو في وجودها، ولا تترقّى في تطوّرها، وإنّما تتجمّع وتتوزّع بطرق وأشكال مختلفة.

ولكنّ بالرغم من استناد ذلك الجواب إلى علم الميكانيك، وما قدّمه من نجاح في اكتشاف قوانين الحركة الميكانيكيّة وتفسير الحركات المألوفة للأجسام الاعتياديّة على أساسها، إلّا أنّ استمرار تطوّر هذا العِلم في مجالات الحياة المختلفة أثبت بطلان الجواب المادّيّ الميكانيكيّ وتفسيره لكلّ حركات الكون تفسيراً ميكانيكيّاً. بل أكّد العِلم ما أدركه الإنسان بفطرته - منذ زمن بعيد - من أنّ تنوّع أشكال المادّة لا يعود إلى مجرّد نقلة مكانية من مكان إلى آخر، بل إلى ألوان من التطوّر النوعيّ والكيفيّ.

إذاً، فالجواب الإسلاميّ عن السؤال، هو ما يتطابق مع فطرة الإنسان، الّتي تؤمن بأنّ الأشكال المختلفة في الوجود

هي عبارة عن درجات ومراحل من التكامل. فالحياة درجة أعلى من الوجود للمادّة، وهذه الدرجة نفسها ليست حدّيّة وإنّما هي أيضاً درجات، وكلّما اكتسبت الحياة مضموناً جديداً عبّرت عن درجة أكبر، ومن هنا كانت حياة الكائن الحسّاس المفكّر أغنى وأكبر درجة من حياة النبات وهكذا.

السؤال الثاني: إذا كان الفارق (أو الاختلاف) بين أشكال الوجود في هذا الكون هو فارق نوعيّ وكيفيّ، بما يُعبّر عن وجود تطوّر ونموّ وزيادة في وجود هذه الأشكال، فمن أين جاءت هذه الزيادة الجديدة - في المادّة - وكيف ظهرت ما دام أنّ لكلّ حادثة سبباً كما تقدّم؟

توجد بهذا الصدد ثلاث إجابات:

الأولى: أنّ هذه الزيادة الجديدة الّتي تُعبّر عنها المادّة من خلال تطوّرها، قد جاءت من المادّة نفسها؛ أيّ أنّ الشكل الأدنى من وجود المادّة كان هو السبب في وجود الشكل الأعلى درجة.

ولكنّ هذه الإجابة تتعارض مع القضية الثانية من قضايا

الدليل الفلسفيّ، الّذي يُقرِّر أنّ الشكل الأدنى درجة لا يُمكن أنّ يكون سبباً لما هو أكبر منه درجة، وأغنى منه محتوى من أشكال الوجود.

الثانية: أنّ هذه الإجابة ذهبت - أيضاً - إلى أنّ الزيادة الجديدة الّتي تُعبّر عنها المادّة من خلال تطوّرها، قد جاءت من المادّة نفسها، ولكنّ لا كما هي في الإجابة الأولى من الأدنى إلى الأعلى بما يتعارض مع القضيّة الثانية من الدليل الفلسفيّ، بل إنّ ذلك يتمّ على أساس أنّ كلّ أشكال التطوّر ومحتوياته موجودة في المادّة منذ البدء، فمثلاً: الدجاجة موجودة في البيضة في وقت واحد، ويعني ذلك أنّ كلّ شيء يحتوي على نقيضه - ضدّه - في أحشائه وهو في صراع مستمرّ مع هذا النقيض، وبهذا الصراع بين النقيضين ينمو النقيض الداخليّ، حتّى يبرز ويُحقّق تحوّلاً في المادّة، كالبيضة تنفجر في لحظة معيّنة ويبرز فرخ الدجاجة من داخلها، وعن هذا الطريق تتكامل المادّة باستمرار.

ولكنّ السؤال الّذي يرد هنا: ماذا يُقصد بالضبط من أنّ

الشيء يحتـوي على نقيضه أو ضدّه؟ وبالتحديد أيّ المعاني التّالية هو المقصود؟

أ – فهل يُراد بذلك أنّ الميّت (أي البيضة) يلد الحيّ (أي فرخ الدجاجة) ويسبغ عليه الحياة، وهذا ما يتعارض مع الفقرة الثانية من الدليل الفلسفيّ، وهي أنّ الأدنى درجة لا يُمكن أنّ يُعطي الأعلى درجة؟

ب – أو يُراد بذلك أنّ البيضة لا تلد الفرخ، بل تُبرزه بعد أنّ كان كامنــاً فيها؛ لأنّ كلّ شــيء يكمن فيه نقيضه. فالبيضة حينما كانت بيضة هي في الوقت نفسه فرخ دجاجـة. ولكنّ من الواضـح أنّ البيضة إذا كانت في الوقـت نفسه فرخ دجاجة، فلا توجد هناك أيّ عمليّة نمـوّ أو تكامل عندما تُصبـح البيضة دجاجة؛ لأنّ كلّ ما وجد الآن كان موجوداً منذ البدء، تماماً كالشخص يُخرج نقوده مـن جيبه فلا يزداد بذلك ثراء، لأنّ كلّ ما بيده الآن من نقود كان في جيبه.

ج – أو يُــراد بذلــك أنّ البيضــة نفسها تُعبّــر عن ضدّين

أو نقيضيـن مستقلّين، لـكلٍّ منهما وجـوده الخاص، فأحدهمـا: يتمثّل فـي النطفة الّتـي سببها في داخل البيضـة اللقاح، والآخر: سائر ما تحتويه البيضة من موادّ؟

وهذان الضدّان وحّدتهما معركة في داخل قشر البيضة، وأبـرز ذلك الصـراع انتصار أحـد الضدّين وهـو النطفة، فتحوّلت البيضة إلى فرخ دجاجة.

ولكنّ السؤال: هـذا التناقض، أو الاندمـاج، أو التوحّد بين الضدّين ـ مهما تكن تسميته ـ فإنّه يؤديّ إلى نتيجة أكبر، إلـى عملية نموّ، إلى شيء جديد يزيد على المجموع العدديّ لهما، فمن أين جاءت هذه الزيادة؟

فهـل جاءت مـن الضدّيـن المتصارعيـن الفاقدين معاً لهـا، مع أنّ فاقد الشيء لا يُعطيه، بحكم القضيّة الثانية من الدليل الفلسفيّ المتقدّم؟

الثالثـة: تـرى هذه الإجابـة، أنّ الزيـادة الجديدة الّتي تُعبّر عنها المادّة مـن خلال تطوّرها، قد جاءت من مصدر

خارجيّ يتمتّع بكلّ ما تحتويه تلك الزيادة الجديدة من حياة، وإحساس، وفكر، وهو الله ربّ العالمين. وليس نموّ المادّة إلا تربية وتنمية يُمارسها ربّ العالمين بحكمته، وتدبيره، وربوبيّته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1].

وهذه هي الإجابة الوحيدة الّتي تنسجم مع القضايا الثلاث المتقدّمة، وتستطيع أنْ تُعطي تفسيراً معقولاً لعمليّة النموّ والتكامل في أشكال الوجود على ساحة هذا الكون الرحيب.

وبعد أنْ ثبت لدينا وجود الصانع الحكيم لهذا الكون والحياة من خلال الدليلين العلميّ (الاستقرائيّ) والفلسفيّ، فإنّنا نختم هذا المبحث مع مسألة عدالة هذا الصانع الحكيم سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٢ ـ ١٤.

العدل الإلهيّ:

كلّنا نؤمن - بعقلنا الفطريّ البديهيّ - بقيم عامّة للسلوك، وهي القيَم الّتي تؤكّد أنّ العدل حقٌّ وخير، والظلم باطلٌ وشرٌّ، وأنّ من يعدل في سلوكه جدير بالاحترام والمثوبة، ومن يظلم ويعتدي جدير بعكس ذلك.

هذه القيم العامّة للسلوك الّتي نُدركها بعقلنا الفطريّ البديهيّ، تنطبق تماماً على الصانع الحكيم سبحانه وتعالى، بل ويُحيط بها؛ لأنّه هو الّذي وهبنا هذا العقل، وهو في الوقت نفسه بحكم قدرته الهائلة، وسيطرته الشاملة على الكون، ليس بحاجة إلى أيّ مساومة أو ما يُشابه ذلك. ومن هنا نؤمن بأنّ الله سبحانه وتعالى عادل لا يظلم أحداً.

إضافة إلى ذلك، فإنّ القيَم - السابقة الذكر - لا تدعو إلى صفات الخير وترفض صفات الشرّ فحسب، بل تُطالب - أيضاً - بالجزاء المناسب لكلٍّ منهما؛ أي العقل الفطريّ السليم يُدرك أنّ الظالم جدير بالمؤاخذة، وأنّ العادل جدير بالمثوبة.

وعلى ضوء ذلك، فإنّنا ما دمنا نؤمن بأنّ اللّه تعالى عادل مستقيم في سلوكه، بالتّالي فهو حتماً قادر على الجزاء المناسب ثواباً وعقاباً، أي يُجازي المحسن على إحسانه، وينتصف للمظلوم من ظالمه. ولكنّ ما نُلاحظه أنّ هذا الجزاء الإلهيّ كثيراً ما لا يتحقّق في هذه الحياة الدنيّا، مع أنّ اللّه تعالى قادرٌ على ذلك، إلا أنّ هذا ـ في الواقع ـ ما يُبرهن لنا حقيقة على وجود يوم مقبل للجزاء، يجد فيه كلّ من العادل الأمين والظالم الخاسر جزاءهما على أعمالهما في هذه الدنيا، وهذا هو يوم القيامة الّذي يُجسّد كلّ تلك القيم المطلقة للسلوك، وبدونه لا يكون لتلك القيم معنى.

الخلاصة:

أوّلاً: إنّ الإيمان باللّه تعالى هو نزعة أصيلة وفطريّة راسخة في داخل الإنسان، وليس وليد تناقض أو هلع ورعب من كوارث الطبيعة.

ثانياً: بالرّغم من اتّفاق كلّ من الاتّجاهين، المادّي

والإلهيّ، على تجاوز المعطيات الحسّيّة والتجريبيّة، إلّا أنّ التفسير العقليّ لها عند المادّيّين يذهب إلى نفي وجود صانع حكيم، بينما يثبت ذلك عند الإسلاميّين.

ثالثاً: يعتمد الدليل العلميّ على الحسّ والتجربة، ويتّبع منهجاً استقرائيّاً قائماً على حساب الاحتمالات، وله خمس خطوات في إثبات الصانع الحكيم، وهي:

١ - يُلاحظ وجود عددٍ كبيرٍ من الظواهر المنتظمة في الكون تتوافق مع حاجة الإنسان لتيسير حياته.

٢ - تطرح فرضيّة تقول: بأنّ هناك صانعاً حكيماً يهدف إلى توفير عناصر الحياة على الأرض والتوفيق والتكامل فيما بينها.

٣ - عدم افتراض وجود صانع حكيم هادف، يعني افتراض مجموعة هائلة من الصدف غير الهادفة تسيّر هذا الكون.

٤ - ترجيح فرضيّة وجود صانع حكيم هادف في تيسير هذا الكون الواسع.

٥ - كلّما زاد احتمال ضآلة فرضية الصدف غير الهادفة، زاد في المقابل احتمال صحّة فرضيّة وجود الصانع الحكيم الهادف.

النتيجة: نصل بشكل قاطع إلى أنّ هناك صانعاً حكيماً وعادلاً لهذا الكون، بدلالة تناسق وتدبير كائنات هذا الكون.

رابعاً: يتضمّن الدليل الفلسفيّ - العقليّ ثلاث قضايا:

١ - كلّ حادثة لها سبب. ٢ - الأدنى لا يكون سبباً لما هو أعلى منه درجة. ٣ - اختلاف درجات الوجود في هذا الكون وتنوّع أشكاله كيفيّاً.

خامساً: اختلاف درجات المادّة في هذا الوجود وتنوّع أشكالها، ليس بسبب داخليّ وهو المادّة نفسها، بل بسبب خارجيّ وهو الله تعالى الّذي يقوم بتدبيرها ورعايتها على قاعدة العدل.

سادساً: الله سبحانه عادل، حيث غرز في فطرتنا قبح الظلم وحسن العدل، ثم إنّه سبحانه ليس بحاجة إلى

مساومة أو ما شابه ذلك ليظلم.

وعلى هذا، الله العادل لا بُدّ أن يُجازي الظالم عقاباً، والمحسن ثواباً، إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة.

الفهرس